الأهرام

المصدر : الشرق الاوسط

التاريخ : ٦ ديسمبر ١٩٩٩

روسيا تملك خيارا واحدا في الشيشان .. الانتصار

خسر الجيش الروسي الحرب الأولى في الشيشان لأنه لم تستطع تحمل حرب عصابات .. لكن كان من الواضح منذ ذلك الوقت أن موسكو لن تقبل الهزيمة

فيكتور كريمينيوك ❖

من الصعب دائما تحديد الوضعية القانونية لحروب التحرير. فالذين يؤثرون الوضع الراهن يعتبرونها غير شرعية وتخريبية. اما عند الذين يفضلون التغيير والتجديد، فانها تمثل التقدم والترقي. وتصبح المهمة في غاية الصعوبة عندما تقع تلك الحروب داخل الحدود الوطنية، لا في مستعمرة بعيدة، وتترافق معها «احتكاكات الحرب» المعتادة كالغزو والنهب والاستباحة وقطع الطرق واعمال العنف واخذ السجناء والرهائن.. وما الى ذلك.

وتصبح صعوبة تحديد تلك الوضعية هائلة بنوع خاص عندما تثير القضية اهتمام جهات خارجية. عندئذ يتحول الفرقاء المتحاربون في نظر البعض، اما الى قديسين وابطال، أو مجرمين وخارجين على القانون، حسب توجهاتهم ومنطلقاتهم. ويتوقف الامر في المدى البعيد على النتائج، فاذا انتصر الفريق الرافض للوضع الراهن نال الاعتراف والموافقة، واذا انهزم الصقت به تهمة الشغب وتعكير الامن، فلا يستحق العطف او الدعم.

لقد باتت هذه القضية ملحة في روسيا اليوم. فالحكومة الروسية في موسكو تسعى جاهدة للحفاظ على الوضع الراهن في شمال القوقاز، وهي تدرك انها ما لم تضع حدا للمقاتلين من أجل الحرية في الشيشان، وتحقق لهم انسحاب جمهوريتهم من الاتحاد، فان ذلك قد يؤذن ببداية تفكك المواقع الروسية في تلك المنطقة ذات الاهمية الاستراتيجية. ان المغانم أو الخسائر في مثل هذه الحالة كبيرة عادة، لكنها في الاساس قضية تطبيق للقانون.

ومن الواضح انها ليست حالة مألوفة من حالات الحرب ضد الاستعمار. صحيح ان روسيا احتلت بلاد الشيشان في القرن التاسع عشر بعد حرب طويلة دامية. لكنها سرعان ما اندمجت في روسيا واصبحت جزءا لا يتجزأ منها، وكان ذلك امرا طبيعيا. فمنذ القرن السادس عشر تعلمت روسيا كيف تتعايش مع الشعوب الاسلامية، واول من اندمج في روسيا خانات تتارقازان وأستراخان الذين اصبحوا من الرعايا الروس منذ سنة 1550 ميلادية، ثم جاء دور البشكير من خانات سيبيريا (في اواخر القرن السادس عشر)، ثم الجيوب الاذربيجانية، وخانات القرم (في القرن الثامن عشر)، وآسيا الوسطى (في القرن التاسع عشر). وفي الوقت الذي تحول فيه الشيشان بالقوة الى رعاية روس، كانت الامبراطورية الروسية قد اكتسبت خبرة جيدة في التعاطي مع اجزائها الاسلامية. وفي اواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين كانت النخب القبلية الشيشانية قد اندمجت في الحياة الروسية الى درجة اطفأت حلمهم بالاستقلال، فتجندوا هم واولادهم في أفضل الألوية العسكرية. وظلت وزارة الداخلية الروسية تدفع لهم مرتباتهم التقاعدية وراح جهاز الامن الروسي يراقب ولاء افراد عشائرهم.

ولم يتخلخل هذا الوضع المستقر الا نتيجة للثورة الشيوعية في عام 1917. فمن جهة جرت تصفية النخب القبلية القديمة التي قاتلت الى جانب البيض، ففقدت سيطرتها على قبائلها. ومن جهة ثانية، صعد اناس جدد للسيطرة على تلك القبائل، كثيرون منهم كانوا مقربين من الحزب الشيوعي. وبفضل ولائهم للنظام الشيوعي، أمدهم ذلك النظام بأراض زراعية جيدة وخصبة الى الشمال من نهر تيريك، وهي اراض كانت قد صودرت من القوزاق الذين اعتبرهم النظام الجديد معادين له، فارسل الملايين منهم الى معسكرات الاعتقال (أرخبيل القولاق) ليقضوا فيها بقية حياتهم.

لكن شهر العسل هذا بين الشيشان والشيوعيين لم يدم طويلا. ففي عام 1944، قام ستالين في منعطف آخر من منعطفات سياسته تجاه القوميات بنفي الشيشان وانسبائهم الانغوش بالقوة الى آسيا الوسطى ليعيدهم نيكيتا خروتشوف من بعده في عام 1956.

ولذا، لم تكن هناك مشكلة سياسية ملحة مثل استقلال الشيشان حتى سقوط النظام

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

السماح بخروج الشيشان من الإتحاد الروسي يعني بداية تفكك المواقع الروسية في كل منطقة شمال القوقاز ذات الأهمية الاستراتيجية

الشيوعي في عام 1991، ولم يطرأ ذلك الا في التسعينات كجزء من سياسة الرئيس بوريس يلتسين في التلاعب بالنخب المحلية، سعيا وراء السلطة والشعبية. وكان خطاب يلتسين اليهم: «خذوا من السيادة ما استطعتم هضمه»!

وهكذا بلع القائد الشيشاني آنذاك، الجنرال جوهر دودايف، الطعم مؤثرا فهم خطاب الرئيس الروسي بظاهر النص، بينما التقليد الروسي البيزنطي يعلم اتباعه بان اخذ اقوال الزعيم بظاهر نصها خطأ فادح.

وما تلا ذلك معروف وظاهر للعيان. ففي شهر ديسمبر (كانون الاول) 1994، أرسلت قوات روسية الى بلاد الشيشان «لاستعادة الوضع الدستوري». فظلت تلك الجمهورية سنة ونصف سنة ميدانا لقتال عنيف. وقد خسر الجيش الروسي تلك المعركة، لانه لا يستطيع تحمل حرب عصابات، وهي نوع من الحرب لم يتحملها اي جيش نظامي في التاريخ العالمي. لكنه كان من الواضح حتى في ذلك الوقت، ان روسيا لن تقبل الهزيمة على ايدي الشيشان، وانها سوف تعد العدة فورا لحرب جديدة، واذا شئنا التحدث في الاطار العسكري فانه من المحتوم ان تكسب روسيا الحرب لانها اكبر من الشيشان مائة مرة، ولانها لن تتوقف.

وهنا نصل الى لب المسألة، اذ ان المتحلين بالمسؤولية من زعماء الشيشان يعرفون ذلك جيدا. وقد خلص بعضهم الى الاستنتاجات الصحيحة، وخلاصتها ان على الشيشان ان يتعايشوا مع روسيا، وهم ربما ربحوا من ذلك نظرا الى ما في روسيا من الموارد الهائلة، الاقتصادية والتكنولوجية والثقافية والبشرية.

ولروسيا خبرة جيدة في استجماع احتياجات التنمية الكوزموبوليتية شبه الامبريالية، والمصالح التاريخية، واحتياجات الشعوب المختلفة التي تؤلف الامة الروسية، ومن السهل على الشيشان ان يجدوا لانفسهم مكانا خاصا بهم في ذلك الموزاييك من المصالح المتعددة ليعيشوا بسلام مع «الاخ الاكبر» بعد انتهاء عملية تطبيق القانون.

لكن هناك شريحة اخرى من زعماء الشيشان. فبعضهم متورط كثيرا في الجرائم التي وقعت خلال وبعد الحرب الاولى (الفترة 1994 ـ 1996) وبعضهم الآخر لا يجد ما يغري به اتباعه سوى المناداة بـ «الجهاد ضد روسيا». وفي اي حال، فان هذه الفئة لن يرضيها ان تكون جزءا من الوضع الراهن ولا احتمال ان تبقى بلاد الشيشان جزءا من روسيا، وأصحابها يعرفون جيدا انهم لن يكسبوا الحرب ضد روسيا، ومع ذلك لا يأبهون.

ما نراه الآن في شمال القوقاز هو حالة أخرى من المأساة الانسانية. فالروس لن يقبلوا ابدا باستقلال الشيشان، والا تفككت المنطقة كلها وانفجرت فيها الاضطرابات العرقية: الداغستان، أوسيتيا، كراشيفو، بلاد الشركس، وغيرها.

وفي غياب اي اشارات سليمة وواضحة من السلطات الشيشانية للعمل معا من أجل تضميد جراح الحرب الاخيرة، فان الحكومة الروسية تفضل الحلول العسكرية، واي ضغط عليها من الخارج سوف يعتبر على السواء معاديا ومؤشرا على ضرورة التصرف بغير رحمة او شفقة لاحلال الحل النهائي باسرع ما يمكن.

ويأمل المتطرفون من الشيشان ان تسعفهم المساعدات الخارجية، كالضغط من الأمم المتحدة، ومن العالم الاسلامي وغيره. لكن ما عدا استثناءات قليلة، لا أحد يتوغل في دعمه لهم الى درجة التصادم مع روسيا، كما انه لا احد يعتبر المسألة الشيشانية مسألة جهاد.

ان في روسيا قواعد مختلفة للتعايش بين الثقافات والديانات والقوميات المختلفة، وهي قواعد مجربة ومختبرة، وقد تسعف دولا اخرى في تسوية مشكلاتها ذات المنشأ المماثل.

---

* نائب مدير معهد دراسات الولايات المتحدة وكندا في اكاديمية العلوم الروسية في موسكو. المقال ينشر بالاتفاق مع «الديبلوماسي» ـ (خاص بـ«الشرق الأوسط»)

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية